عادل سمارة

حول علاقة الاقتصاد بالتراث الشعبي

ان تراث الشعوب هو المعبر عن سجيتها ومزاياها الصميمية والتي ، على الرغم من تشابهها بين مختلف الشعوب ، الا ان لهـا سمات معينة تبرز بشكل اكثر وضوحا لدى شعب معين منه لدى شعوب أخرى .

ويشكل الاقتصاد عاملا اساسياً وحاسماً في تكوين وتبديل هذا التراث ، بمعنى ان التراث يخضع لتأثيرات وسائل الانتاج المتغيرة والمتطورة ، ويعزو الكثيرون تأثير الاقتصاد هذا الى البيئة والمناخ ، وهذا ناتج عن افتقارهم الى النظرة العميقة والمنهاجية في تحليل التركيبة الاجتماعية للمجتمعات البشرية . هذا من جهة ومن جهة ثانية فالاقتصاد هو الارضية الاساسية والمحرك الاول لحياة الشعوب حيث يؤثر نمط الانتاج وعلاقاته في تفكير الجماهير ومسلكياتها الطبقية التي تمتد بدورها الى تراثها الشعبي المتراكم عبر أجيال عديدة . ولا غنى عن القول في هذا المعرض أن التراث الشعبي منوط بالارض كقاعدة انتاج وبالاحرى كاطار عريض تتواجد في أحشائه الطبقات الاجتماعية ، ولذلك سينحصر هذا المقال في معالجة الاقتصاد من خلال موضوعية الارض فقط .

قبل ظهور الآلة كوسيلة انتاج متطورة تخلق بدورها علاقات انتاج وتركيبة اجتماعية مختلفة عن تلك التي تتواجد في المجتمع الزراعي الذي يعتمد في انتاجه على الارض ، كانت الارض بحد ذاتها وسيلة الانتاج الوحيدة ، وبالتالي القيمة الاساسية في حياة الطبقات التي تعتمد عليها في معيشتها ، كما وتضفي الارض على مالكها صفات القوي والنشيط والغيور والوطني ، ويرتد مفهوم الارض كقيمة ايضاً الى أساس اكثر عمقاً ، وهو كون الارض مخزنا معطاعلما يحتاجه الانسان في وجوده وبقائه وتطوره ، وهكذا تلعب الارض كقاعدة انتاجية دورا اساسياً في تراث الشعوب .

ان النظر بطريقة علمية الى علاقة الطبقات التي تعيش على الزراعة بالارض يوصلنا الى ان الفلاح البسيط يشعر بأن هناك امتدادا عاطفياً بينه وبين الارض ، وهو لا يفلسف علاقته بها كأن يقول مثلا (انها مصدر السلع ووسيلة الانتاج) ، بل ينظر اليها كقيمة مقدسة لا داعي لتفسير اسباب قدسيتها ، اقتناعاً منه بأن دورها شديد الوضوح ولا حاجة لشرحه . ولذلك فانه

بالنظر لأهمية الارض اقتصادياً في نظر الفلاح فهو ينظر الى ملكيتها بتقدير شديد ، ويرى ان من يستطيع حيازة أوسع مساحة ممكنة من الارض هو أجدر الناس بالاحترام ، وهذا يبين أن للملكية الخاصة تقديرا معيناً في نظر الفلاح .

ويتجلى الفولكلور الفلسطيني من حيث أساسه الاقتصادي في الكثير من مسلكيات الفلاحين في علاقاتهم العامة وأخصها علاقات الانتاج حيث تلمس الروح التعاونية والنشاط الجماعي وهذا النشاط هو مسلك يمكن ان يخدم كأرضية مناسبة لتطبيق مبدأ الملكية العامة اذا ما وجدت الاداة المنظمة والقادرة على تطوير هذا المسلك : ففي حراثة الارض او حصاد الزرع يقوم الفلاحون الذين انهوا حصادهم مبكرا بمساعدة اولئك الذين لم ينهوه بعد ، وبالطبع بدون اي مقابل سوى وجبة الطعام التي تقدم بشكل مركز في ذلك اليوم ، ويخلق هذا المسلك جوا من الجماعية . ولا يقتصر هذا الجو على بذل المجهود الجسماني ، بل يدخل الجانب العاطفي فيه حيث تردد تراويد واغاني شعبية كثيرة تستثير همم الشباب لكي ينشطوا في العمل . واستثارة الهمم هذه تقوم على اساسين ، هما ، اشباع الحاجة العاطفية ، وتحقيق مكسب انتاجي من حيث زيادة عدد الواحدات التي ينتجها الفرد نظرا للدفعة العاطفية الجميلة التي يستمدها من ذلك الجو ، ويذهب الفلاحون بعيدا وبشكل رومانسي مع هذا الجو ، حيث ينسجون قصص الحب والعشق بين الشباب والفتيات ، ويبنونها بالطبع على قيم انتاجية حيث يضعون أساس القصة اعجاب الفتاة بنشاط الشاب وقدرته العظيمة على العمل ، مثل قصة (خليل أبو دحيلة) (١) . وينطلقون في هذا من ايمان الفلاح بمفاهيم الرجولة والفحولة ، وهذه المفاهيم مرتبطة بالحياة الخشنة التي يعيشها الفلاحون وبالتالي ما تتطلبه هذه الحياة من قدرة على العمل المتواصل .

ويمارس الفلاحون الفلاحة المشتركة حيث يتعاون اثنان أو اكثر في حراثة قطعة واسعة من الارض وبذرها وحصادها واقتسام محصولها بالتساوي ، وكذلك الاشتراك في ضمان كروم الزيتون . وعصر الزيتون كذلك — وهم يعطون هذه الشجرة قيمة كبيرة لدرجة التغزل فيها كشجرة ذات جذور ضاربة في التاريخ الشعبي ، وهذا التعلق بشجرة الزيتون راجع الى ما تقدمه من انتاج كان في السابق هو العماد الاول في حياة الفلاح — وتشترك أكثر من أسرة قروية

(١) قصة شعبية مضمونها ان شابا لم يجد الطريق الى زواج فتاة يحبها الا بمساعدة اهلها في جني حصادهم ، ونظراً لقدرته العظيمة على العمل فقد احبته الفتاة وخاصة حيث كان يغني ملحمة شعبية طويلة خلال الحصاد .